اشتغال العلامة السيميائية في الفضاء الرمزي
قراءة في الفكر النقدي الغربي (الإنتاج)

الدكتور: أحمد مداس
قسم الآداب واللغة العربية
جامعة محمد خيضر - بسكرة

الملخَّــص:

لقد تحولت صناعة الدوال ومدلولاتها من ثبات قوانين اللغة التي أقام عليها سوسير دراساته إلى الحركية والتغير، فعلى الرغم من حفاظها على مادة الدوال وصناعة الدوال الجديدة بما يتلاءم والتطور في مختلف ميادين الحياة، فقد جرت على صناعة المدلولات التي تعدت إلى حد بعيد سكونية المعجم وثباته إلى دينامية الأداء الفردي حيث تلتصق الدوال بمدلولات وتتسع لأخرى صانعةً من الاحتمالات ممكنها وجائزها، بوصفها مقاصد ممكنة بالتعيين أو بعدم التعيين. وعليه، ياخذ الملفوظ سلطته الرمزية من طبيعة المجتمع حيث تُنتَج الرموز/العلامات وتُدرَك معانيها.

كلمـــات مفاتيـــح: الإنتاج، العلامة/الرمز، التاويل.

Résumé :

La production des signifiants et des signifiés s'est transformée de la constance et l'immobilité des lois Saussuriennes du langage à la mobilité qui, malgré la conservation de la matière des signifiants et la production d'autres suivant la nécessité de la vie quotidienne, a agit sur la production des signifiés tout en dépassant la lexicologie statique vers le dynamisme de la performance ou les signifiants se collent à des signifiés et s'ouvrent pour d'autres formant les probabilités possibles et admissibles qui peuvent être des intentions sémantiques possibles, explicitement dénotées ou implicitement connotées. De ce fait, l'énoncé prend son pouvoir symbolique de la société ou on produit et on perçoit les symboles et leurs sens.

Mots clés : production, symbole, interprétation.

Abstract:

Modern literature on the relationship between signifier-signified attests to be characterized by dynamism and change. This honestly marks a neat breach from Saussurean static linguistic laws. Hence, despite the preservation of the signifiers and the processing of new ones that are suitable for different domains of the sociolinguistic life situations, the

signified objects, which have gone beyond the static state of glossaries, has shifted to englobe the individuals' performance where both signifiers and signified objects coalesce and attract deliberate and/ or unintentional permitted and possible combinations. On score of that, utterances take their symbolic power from the society that produce interpret them.

Key words: production, symbol, interprétation.

مقدمـــة:

إن الفضاء الرمزي هو المساحة التي تسمح بصناعة المعنى أول الأمر مع المنتج الأول الذي يرنو هدفا بعينه ثم مع المنتج الثاني الذي يرنو تحقيق هدف الأول وزيادة. وإذا كان المنتج الأول في العرف اللساني هو المتحدث الذي ينشئ خطابا؛ فإن المنتج الثاني هو القارئ الذي يتعدى سلطة الأول إلى سلطة التعامل مع النص وإنتاج معناه بما يتمتع به من إمكانات لغوية وغير لغوية تجعل النص برمته عنده رمزا لحادثة أو وجود ما. بل قد يتحوّل التعبير العادي إلى فضاء رمزي بطبيعة الإسناد التي تبيح العدول وتسمح بتجاور الملفوظات التي لا تقبل التجاور عادةً. من هنا يكتسي التعبير سلطةً رمزيَّةً تحتاج فكًّا وتأويلا وتعاملا حذرا يصل إلى حدّ الاعتداد بالمجتمع والثقافة والإيديولوجيا وهوى النفس في صناعة الرمز وصناعة معناه من حيث الإنشاء والإدراك معًا.

يبدأ الموضوع بمنطلقات هي مسلمات لسانية من أيام سوسير؛ تتعلق بالاعتباطية بين الدال والمدلول ونسبية الاصطلاح والتمييز في الفضاء الاجتماعي الذي يصنع الدوال الفارغة والمملوءة بوصفها شفرات متنوعة، ثم في مرحلة ثانية يتعيَّن تحديد وسائط تشكيل وإنتاج الرمز؛ وذلك من قبيل الحديث عن المعنى وتمثيله، والانتقال من الرمزي إلى السيميائي، والفضاء الجواني المتعلق أصلا بسيمياء الأهواء وسلطتها على الأفعال والسلوكات والتصرفات، بل حتى الممارسات السيميائية واستحضار غائب النصوص

ومعانيها في سبيل بناء المعنى المراد تقديمه رسالة في مقام بذاته. وأخيرا يُتوَج الموضوع بآليات تأويل الرمز لفظا مفردا بوصفه مكونا رئيسا في تعبير ما قد لا يعني شيئا وهو خارجه، وإن عنى فهو لا يتعدى المعنى المعجمي الذي يقوم على الاصطلاح، أو تركيبا بوصفه صورةً تشتغل فيها الدوال خطيا على وجه الاستقامة بالمباح سندا صانعةً معنى اجتماعيا يعبر عن بيئة وحال معلومين، أو غير المباح سندا صانعةً معنى ذاتيا يتطلبه المقام وتفرضه الضرورة تعيينا لحال أو وجود ما، يستدعي معرفةً واستجماعا للقوى الذهنية لإدراكه لذاته أصالةً وإدراك ما تبعه من المعاني والمدلولات الممكنة على وجه التبع.

في صناعة الرمز وإنتاجه:

إن الأصل في ما تعيّنه العلامة إما أن يكون شيئا له اسم[1] على نحو ما تعيّن عند ميشال فوكوه **(M. Foucault)**، وإما أن يكون مفهوما له صورة كما تعيّن من قبل عند سوسير **(F. De Saussure)**، ولذلك نجد في قوله: (لا تجمع العلامة اللسانية شيئا واسما ولكن تجمع مفهوما وصورة)[2] نفيا للاحتمال الأول وإثباتا للاحتمال الثاني والذي يشكل عنده حقيقة قائمة بذاتها، والأصل فيها أنّ (الرابط الموحد بين الدال و المدلول اعتباطيّ)[3].

يبدو في هذا التحديد كلام مشترك بينهما؛ ذلك أن الاسم والشيء يعنيان على التوالي الصورة والمفهوم، فيكون كلامهما واحدا، أو أنه يعني الرمز عند فوكو وهو عينه ما تعيَّن عند سوسير، فهو ينفي عن الرمز خاصية الاعتباط التي تقوم عليها علاقات الدوال والمدلولات في اللغات البشرية، وبذلك تكون العلامة للدلالة على الجمع بين اللفظ ومعناه، والمفهوم بالمدلول والصورة السمعية بالدال[4]، ليخلص إلى أن الرمز يمتلك خاصية

(أن لا يكون أبدا اعتباطيا و هو ليس فارغا بل يوجد رابط طبيعي بين الدال والمدلول)[5].

إن الرمز بمعناه العام يعادل العلامة اللسانية التي تؤول إلى الاعتباط، والرمز بمعناه الخاص يعادل الاستخدام الخاص والملزم والبعيد عن الاعتباط الذي ينظم علاقات الدوال – الرموز– بمدلولاتها. ولا يمنع المبدأ الأساس في اعتباطية العلامة من التفريق في كل لغة بين ما هو اعتباطي أصيل أي غير متحرك و بين ما هو نسبي؛ فجزء فقط من العلامات مطلق الاعتباط ... ويمكن للعلامة أن تكون متحركة نسبيا[6].

يجرنا هذا الكلام كما يؤكده دانيال تشاندلر إلى حركة المنظومات السيميائية الغربية التي يرأسها دريدا (**J. Derrida**)، والتي ينكر بموجبها وجود معان نهائية ممكنة التحديد[7]. وهو عينه موضوع الدوال المتحركة أو الدوال الفارغة التي يعرفها بارت (**R. Barthes**) بما لا يملك مدلولا محددا[8]، إذن فمدار الحديث هنا اشتغال الدوال بوصفها علامات سيميائية دالة من حيث هي فارغة من المدلولات السابقة والمعيَّنة سلفا، بل هي متحركة قد تأخذ أي دلالة وأي معنى في المقام الواردة فيه، على أن الأصل في الكلمة أن (لا تعني إلا ما يراد لها أن تعني من وجهة نظر المتكلم ولكنها من وجهة نظر القارئ هي دال فارغ أو متحرك مبهم المدلول أو متغير جدا غير ممكن التعيين أو ربما غير موجود وخاضع لإرادة المفسرين)[9]، لكن يفترض أن يكون من بين الاحتمالات الممكنة التي قد يقصدها المتكلم، وإن كان فراغ الدال وتغيره وغموض مدلوله ناتجا عن تعدد المعاني بوصفها احتمالات ممكنة، وقد يصل الأمر حدَّ عدم تعيين القصد المراد الذي يتبخر مع اهتمامات المؤول أو يتعين ثانويا لا يرقى ليكون احتمالا رئيسا يصرف إليه المتلقي قارئا. على هذا يكون لزاما على المنتج أن يدقق ملفوظاته رموزا

وعلامات ليحوّل مدلولاتها بوصفها عاملا مشتركا بينه وبين متلقيه واضحة بيّنة تشكل احتمالا دلاليا رئيسا بقرائن وشواهد صارفة إليه. فإن عنت شيئا آخر يكون دلالات هامشية تابعة وليست مركزية أصيلة.

وتتنوع الشفرات-العلامات والرموز- تنوع مناحي الحياة فمنها الشفرات الاجتماعية[10] والشفرات النصية[11] والشفرات التفسيرية[12] والشفرات الإدراكية[13] والشفرات المنطقية[14]والشفرات العملية[15] ومن ذلك شفرات السير الخاصة بالطائرات والسيارات والشفرات المعرفية كالخرائط والرسوم الرياضية، ومنها أيضا الشفرات الإيمائية كالإنابات الكلامية التي هي مختلف الأبجديات غير اللغوية التي يتم بها تبادل المعرفة[16]، ومنها بدائل الكلام[17] ومساعداته من نبر وحركة[18].

وإذا كان الرمز صيغة لا يشبه فيها الدال المدلول وهو اعتباطي في أساسه أو محض اصطلاحي[19] فلا بدَّ من الإقرار بأن هذا الإطلاق في صناعة مدلولات الرموز لا يخلو من النسبية، وعلى هذا يُفهَم القول بأن الطبيعة الرمزية تعكس النسبية في الإشارة بوصفها علاقة بين الدوال ومدلولاتها[20]. إن الشفرات - العلامات والرموز- في عمومها تحتمل الدلالات الثابتة كما قد تحتمل الدلالات المتعددة بحسب الاستخدام وظروفه وإنتاج الخطابات والتي منها الشفرات الجمالية التي ترتبط باستخدام سيميائي خاص فيعتريها الغموض وعدم التجانس مما يضفي عليها الوصف بالحركة والفراغ. قد يكون في المسألة إفراغ لتلك الدوال من مدلولاتها وإعادة ملئها بمدلولات تتناسب والسياق الذي نشأت فيه واكتسبت منه قيمتها الدلالية بفعل التجاور مع مثيلاتها في ذات المقام/السياق[21]، ولا يكون ذلك إلا بالتحليل العميق الذي (يظهر أن الإشارات التي تكون في ظاهرها غامضة وآيلة للسقوط إنما هي متجانسة وشفرات تحتية تنهل منها قيمتها)[22]؛ إذ مهما

كانت العلامات والرموز المشكلة لخطاب ما فلا بدَّ لها من سياق ثقافي أصيل[23]أنتجت فيه، وأخذت منه قيمتها الدلالية.

وعموما؛ فإن الدوال ترتبط أساسا بالوسائل الرمزية (**instruments symboliques**)، وهي كما حددها بيار بورديو (**P. Bourdieu**)- في حديثه عن السلطة الرمزية و حقل السياسة- بما يأتي:

- البنيات المهيكلة وتعتد بوسائل المعرفة وبناء العالم الموضوعي كالفن والدين واللغة بوصفها (أنظمة رمزية) كما تعتد بالأشكال الرمزية و البنيات الذاتية

- البنيات المهيكَلة وتعتد بوسائل التواصل لغةً وثقافةً وخطابًا وسلوكًا، كما تعتد بالأشياء والموضوعات الرمزية بوصفها بنيات موضعية.

- وسائل الهيمنة و تعتد بالسلطة كما تعتد بالإيديولوجيا.

وإذا كانت الأولى-البنيات المهيكلة- تدل على الموضوعية بوصفها توافقا بين الموضوعات؛ فان الثانية-البنيات المهيكَلة- تعني المعنى الموضوعي الناتج عن عملية التواصل الذي هو شرط فيها، ومجموعهما معا المعنى الذي يعادل الرؤية المؤسسة لفكر ما، فإذا أضفنا إلى ذلك وســـائل الهيمنة **(instruments de domination)** فإن الحاصل هو السلطة الإيديولوجية بوصفها مساهمة خاصة للعنف الرمزي (الارتوذوكسية) في مقابل العنف السياسي (الهيمنة) [24].

إن الأنظمة الرمزية مهما كان مستواها هي مزيج بين الموضوعية التي يحتكم إليها الناس جميعا وبين الذاتية التي تصنع الفضاء الرمزي الذي يصور واقعا بذاته ينحو إلى إثبات فكر إيديولوجي يخدم الطرف المشتغل على تفعيل سيادة هذه الأنظمة الرمزية.

كما يبدو من كلام بورديو التعارض بين الإيديولوجيا الدينية ومثيلتها السياسية من خلال العنف المتبادل بين التيارين، من هنا يصير حديث اللغة مسوغا لأنها من أهم الركائز التي تتأسس عليها السلطة الرمزية، ويخرج الحديث من الاعتباطية التواضعية التي تربط الدال بالمدلول إلى الإلزامية التي تعيّن معاني بذاتها يقصدها المتكلم ويريد من السامع أن يدركها داخل الفضاء الاجتماعي على تعدد طبقاته، فيتم المرور من اللساني إلى الرمزي إلى السيميائي المشتغل على مادة اللغة في مختلف الميادين، ذلك أننا (نستطيع تمثيل العالم الاجتماعي بشكل فضاء متعدد الأبعاد مبني على أساس مبادئ التفرقة أو التوزيعات المشكَّلة من مجموع الخصائص العاملة في الكون الاجتماعي) [25].

وقد تطرق بورديو إلى إنتاج وإعادة إنتاج اللغة الشرعية /اللسان الشرعي **(légitime)**[26] في المجتمع بعيدا عن تنظير سوسير القائم على سنن تشريعي**(code législatif)** وتواصلي **(communicatif)** موجود بشكل مادي خارج المستعملين واستعمالاتهم الخاصة، بل هو في صورة اللغة الرسمية للمجتمع الناطق بها، وبمعنى النظام المعياري الذي ينظم الممارسات اللسانية[27]. وعلى هذا؛ تتعين اللغة الشرعية بالمسافة التي تفصلها عن اللغة المشتركة[28] ذات خاصية النجاعة وهي المتعلقة أولا وأخيرا بالكلام والأداء الفردي[29]، على اعتبار اللغة المشتركة ما سبق أن سماه السنن التشريعي.

ويتعدل أفق المرجعية اللغوية بموجب الانتقال من الوضعيات العادية والعامة إلى الوضعيات الخاصة[30]. من هنا نتحوّل شيئا فشيئا من ثبات مدلولات الرموز إلى فراغها وتحركها وتعدد معانيها، وكأننا أمام مستويين من الاستخدام اللغوي للعلامات الرمزية، ليكون الفضاء الرمزي هو المؤشر الأول في تعيين وصناعة مدلولات الدوال المتأثرة أصلا بالذات المنتجة

للخطاب في شكله الإيديولوجي، ويكون الحاصل خروج الدوال إلى الحياة العامة بالتناول والاستخدام المشترك تلفظًا وبالاستبدال دلالةً وتدليلا بفعل القصد، لتكتسب-بعد الإفراغ من مدلولاتها الأصلية- مدلولات جديدة خاضعة لسلطة الفضاء الرمزي، ولم (يعد من الواجب النظر إلى العلامة بوصفها وحدة ثابتة بوصفها (إشارة) بقدر ما هي مكوّن نشط للحديث، تعدل معناه معنا النغماتُ والتقييماتُ والتضميناتُ الاجتماعية المتغيرة التي كثفتها في داخلها...شروط اجتماعية نوعية..إن المجتمع اللغوي..في حقيقته مجتمع متنافر.. يتكون من مصالح عديدة متضاربة)[31]، تجعل اللغة واقعةً تحت تأثير القوى الاجتماعية الفاعلة فيه[32].

لقد حوّل باختين كما يقول تيري إيجلتون (الاهتمام من النسق المجرد للغة... إلى المنطوقات العينية للأفراد في سياقات اجتماعية بعينها)[33]، أو كما عبّر عنه إميل بنفنست (**E. Benveniste**) التحرك من اللغة إلى الخطاب[34]، والذي مفاده أن (العلامة لدى باختين لم تكن تمثل عنصرا محايدا في بنية معطاة بقدر كونها بؤرة للصراع والتناقض)[35].

على هذا صار الحديث إلى عموم العلامة بوصفها لفظا لا على خصوص الرمز في المجتمع لفظا ودلالةً كما تعين سابقا مع سوسير حيث تكون قيود النسق اللغوي ثابتة ومعطاة... (وليست[في رؤيته] قوى ننتجها، ونعدّلها، ونغيرها في اتصالنا الفعلي) [36].

وليس غريبا – بعد هذا- أن يتحول الفضاء الجغرافي- بنظرة دينية- إلى فضاء رمزي كما يؤكده يوري لوتمان (**Y. Lotman**) في سيمياء الكون، حيث السماء مركز والأرض هامش، وعليه (فإن الحياة الأرضية – الزمنية يمكن أن تكون مقابلة للحياة السماوية الخالدة، غير أن هذا التقابل ليس من طبيعة مكانية)[37]، ولكن طبيعته رمزية إذ تكسب الأماكن بوصفها فضاءات

دلالةً عقائديةً، فهي على رأي لوتمان أخلاقية على الرغم من أن التقابلات أرض/سماء تتضمن وضعية مكانية يرى علماء اللاهوت الغربيين أن الطرف الثاني منها يجري خارج الفضاء، وهو ذو طبيعة مثالية خالصة[38].

إن في سرد هذا الكلام في هذا المقام تعيين لطبيعة الصراع الإيديولوجي الذي يصنعه التقابل بين المادي والمثالي أو البشري والإلهي، وعليه يأتي الملفوظ مشبَّعا بطاقات دلالية تحمل قصدا عند الإنشاء يتطلب إدراكا عند التأويل، وفيه ما فيه من التناقض والتضاد بين ما هو لساني محض تمَّ التواضع عليه، وبين ما هو سيميائي صرف يوجهه القصد نحو إيديولوجيا بذاتها تصارع غيرها وتحاول فرض سيطرتها وهيمنتها في عالم يبيح التعدد كما يبيح الصراع والهيمنة[39]، ليتحكم في إنتاج الخطابات قوى ونوازع ومحركات داخلية مسيطرة على ذات المنتج تحوّل الملفوظات/الدوال من ثبات مدلولاتها إلى تغيرها قصدا نحو مدلولات بذاتها، وليس بالضرورة أن يلقى ذلك التوجيه صداه عند المتلقي وإنما يحاول المنتج أن يسوق العلامات والرموز نحو هدفه الخطابي[40]وفي إطار تلفظي[41] معين يشكل قرينة صارفة إلى ما قصده وأراده أصالةً، ليكون الهدف بعد هذه العملية تحويل معنى العلامة/الرمز إلى معنى بذاته دون معناها المعجمي، ولكنه لا يلبث أن يصيب بفعل فردية الاستخدام غيره من المعاني وهذا احتمال قائم لا ينكر. من هنا يأتي التعدد، ويفرغ الدال ويتحرك ويصبح قابلا للتعبئة من جديد بكل ممكن من الاحتمالات الدلالية وإن لم تكن مقصودةً عينا، وهو ما يتطلب عند الإنتاج تضييق الاحتمالات وتوحيد الاستقطاب سعيا وراء البيان وإدراك المقاصد الأصلية للخطاب بما يذيب العتمة ويذهب الإشكال.

وبعيدا عن المد الايديولوجي[42] يأتي المد المعرفي والثقافي دالا في صورة المعلوم بالضرورة من حيث المرجعية، ولكنه في إطار بذاته وعلى

أساس المشابهة قد يتحوّل المدلول الوضعي(**positionnel**) إلى مدلول مقامي (**contextuel**) يأخذ فيه معنى جديدا قد لا يكون بينه وبين المعنى الوضعي الأول أي قاسم مشترك غير المشابهة(43) التي تتحقق بالإيماء والإيحاء بما يدعو إلى الموسوعية في الإنجاز والإدراك.

إن إيكو وهو يتوسع في هذا الموضوع يفترض مقاصد يود من المخاطَب أن يدركها سواء أكان معروفا أم كان افتراضيا، ليدخل في هذا نظام الرسائل المخصوص بين طائفتين متواجدتين بين عموم المخاطبين، فإن صحَّ بينهما ذلك كان لعموم السامعين معنى غير الذي اختصَّ به المتخاطبان عن قصد؛ فيُعتمَد المقام الجديد في تعيين المعنى الجديد على المقال القديم أو الشائع، وعلى المخاطَب الجديد أن يعتدَّ بالمقام الجديد صارفا المقال القديم إليه، ليكون المشترك اللفظي في المقالين معا واحدا، قد تخلى في المقام الثاني عن معناه الأول ليكتسب معنى جديدا يرتبط بواقعة أو حادثة، ويصير التحول إلى العلاقة بين التعبير والمحتوى وبين التعبير والجانب الذهني للمؤول(44). ويبدو أن الكلمة أو الصورة المكررة لا تعني نفس ما عنته في المرة الأولى بفعل التكرار فقط، بل لأن الحادثة لا تقع مرتين على وجه الدقة(45)، و(المعنى..لا يكون مطابقا لنفسه أبدا، إنه نتيجة لعملية انفصال أو تمفصل **articulation** لعلامات تكون هي نفسها فقط؛ لأنها ليست علامة أخرى، وهي أيضا شيء معلَّق، موقوف، لم يأت بعد. والمعنى لا يكون مطابقا لنفسه أبدا، على وجه آخر هو أن العلامات لا بد أن تكون دائما قابلة للتكرار أو إعادة الإنتاج) (46).

والظاهر أن التحوّل من المدلول الوضعي إلى المدلول المقامي هو الذي ينشئ ذلك الاختلاف المعنوي؛ لأن الملفوظ يتكرر والحادثة قد تتكرر أو فيها مشابهة تكرارية وهو تكرار تمثيلي ينطبق فيه الملفوظ على الحادثة دون

أن تنطبق الحادثة على الملفوظ تماما مع قيام إمكانية التعبير به عنها. وليس في هذا التقرير إلا إمكانية أن تتعيَّن-بالتحديد- الملفوظات بوصفها علامات ورموزًا وتتغير المعاني بوصفها قيما دلالية منشأة ومصنوعة خاضعة للمقام والسياق وظروف الإنتاج عند المخاطب **(discoureur)**، بما يسمح بتحويل حركتها الدلالية من المعلوم والمعروف إلى المراد والمقصود عينا.

إن في إنتاج مدلولات الرموز والعلامات في تقديري حديث عن الممارسات السيميائية عند جوليا كريستيفا**(J. Kristeva)** في صورها الثلاث النسقي والتحويلي والتصحيفي؛ فلو أن منتجا لخطاب استند على حادثة تاريخية ليقرر حقيقة اجتماعية أو نفسية حاضرة، لكان لوقع الملفوظ رنين الماضي التاريخي- المدلول الوضعي- الذي يحمل المعنى الحاضر- المدلول المقامي- وكأنه يفتح جيبا معرفيا، قد تتشابه فيه الأحداث وتتوحد فيه المعاني والمدلولات، وحقيقته الاختلاف الكلي من حيث إنتاج وإنشاء العلامات والرموز؛ فقد يأخذ المنتج الملفوظ كما هو من غير زيادة ولا نقصان ولا تصرف، ليعبر عن حال بذاتها يريد تبليغها كما هي بذلك الملفوظ الذي اتفقت طبقات من المجتمع على معرفته الدلالية الأصلية، ولكنه يريد به غير الذي تعودوه وأدركوه في ثقافتهم، وبذلك يكون فعل التحويل والتصحيف الحاصل في زمن الإنتاج كفيلا بصرف المدلول إنتاجا إلى ما يريده المنتج قصدا، كما كان فعل الإخبار اللفظي كفيلا بإنتاج المدلول الجديد.

وحاصل الأمر أن يتعدى استدعاء ملفوظات الموروث الثقافي الخبر وإعادة التذكير بالتاريخ إلى صناعة المدلولات الجديدة بملفوظات قيلت سابقا لتحدد مدلولات جديدة لم تحدث بملفوظاتها القديمة زمن إنتاجها اللغوي الأول(47).

وقد يكون لطبيعة الذات المنتجة للخطاب في استخدامها الخاص للعلامات والرموز قيود نفسية وتعليمات ذهنية بتصوير المحسوس وإخراجه للآخرين بصورة مقصودة لذاتها، لتعلق المرئي والمسموع تلفظا وإنتاجا بالإحساس والشعور عند إنتاج الخطاب بالذات المنتجة تعبيرا عن ذاتها أو تعبيرا عن غيرها ممن هي موضوعات تجعلها نموذجا تنسج حوله وفيه الملفوظات،فيكون بذلك مرد إنتاج مدلولات العلامات والرموز للحالة النفسية والهوى، ليكون التحليل الهووي (محاولة لتقليص هذه الفجوة الفاصلة بين المعرفة والحس)[48] والانتقال من الظاهر إلى الكينونة[49]؛ ذلك أن (الحسي...قابل للتجلي بشكل مباشر، كما تشهد على ذلك صور الذهول والاندهاش) [50].

والهوى حصيلة فعل الذات أو حصيلة فعل ذات أخرى، يتعين في المستوى الحسي بصورة معلومة معروفة، وفي المستوى الدلالي بصور ملفوظة معلومة تُدرَك تحديدا بفعل تجانس السلوك مع المستوى الهووي للذات[51]. وفي التوتر الاستهوائي ما يشبه الذوات وما يشبه الموضوعات، في شكل علاقة تنظم الأفق التوتري[52] على نحو العوامل في النموذج العاملي وعناصر البرنامج السردي، وإن كان الموضوع في السرديات وسلوكات الذوات/الشخصيات، ولكن بما أن كل ذلك يحدث بالوصف وسرد الأحداث فإنه يتحول إلى فضاء سردي يتخذ من الرموز أدلةً لتصوير حال في مستويين؛ أولاهما ظاهرة واضحة والثانية كائنة خفية بما يفسر تلك السلوكات وفهمها داخل إطار عام معروف يتغير من فعل سردي لآخر بحسب الفضاء الذي يُصنَع ويُنتَج فيه، بوصفها-أي السلوكات- تعبيرا عن ذات الفضاء الرمزي المُنتَج.

وعلى هذا يكون للمجتمع والإيديولوجيا والهوى الموصوف رمزا والحوادث بمختلف مصادرها الأهمية القصوى في إنتاج الدوال بمدلولاتها الخاصة عند التلفظ، التي يمكن تفسيرها بمقدمات نظرية هيالمسلاف **(L. Hjelmslev)**(53) اللغوية، والتي تجاوزت لسانيات سوسير إلى طبيعة الفعل التلفظي وإنتاج رموز وعلامات بمدلولات مميزة تعدت علم الدلالة الثابت والقابع في المعاجم، والمسألة عنده مستويان؛ أولهما ذهني وثانيهما محسوس وفيهما من الثنائيات شكل ومادة، فمضمون وتعبير، ومادة المضمون وشكل المضمون، فشكل المضمون وشكل التعبير، ثم شكل التعبير ومادة التعبير بالتناسب، لتعادل مادة المضمون مادة التعبير في الإنشاء، وذلك بانتماء الشكل إلى اللسان وانتماء المادة إلى الكلام. وفي المادة مضمونا وتعبيرا استدعاء للمعنى، وفي الشكل مضمونا وتعبيرا استدعاء للنشاط المقولي والتلفظي(54).

إذن؛ فالمعنى مضمون في الذهن يأخذ شكلا ذهنيا أول الأمر (شكل المضمون) يتناسب مع شكل التعبير ليحوي مادته أي التعبير، وإن كان الموضوع في النظرية اللغوية إلا أنه يتطابق مع إنتاج الدوال حسب المقامات والوضعيات المعلومة والمعروفة ليأخذ الدليل معناه الجديد في صورة شكله القديم؛ من هنا يحدث التحول الدلالي(المدلول)مع الثبات اللفظي(الدال) على الرغم من اختلاف الأوضاع والأحوال.

الخلاصـــة:

لقد صارت الاعتباطية –التي سيرت الدرس اللساني عهودا– متلاشيةً أمام نسبية العلاقة بين الرموز والعلامات ومدلولاتهما، وصار حديث الرمز الذي استثناه سوسير من قانون الاعتباطية وسيره بقانون الإلزام هو الآخر

خاضعا للتحول الدلالي كما جرى مع إيكو وبورديو وإيجلتون ودريدا وبارت وغيرهم، وتعيّن مضمون الكلام مادةً وشكلاً متناسبا مع المد الهووي أو المد الايديولوجي والثقافي والقصد فيهما على أساس الممارسة السيميائية لإنشاء الدوال التي تصرف إلى مدلولات تحتاج تأويلا وإدراكا خاصا لا يرتبط أصلا بما تقرره مواد المعاجم، أو لنقل إنه التطور في صورة الانتقال من الثابت إلى المتحول (لغة/ كلام) ولسوسير فيه حديث مهم لكنه أولي أو تقليدي بمنطق إيكو ودريدا وبارت(55).

كما نلمس فيما سبق صورةً للتطور الذاتي والتغير الإيجابي ذاتيا دون التقوقع على المعرفة اللسانية التقليدية التي دخلت متحف التاريخ المعرفي ولم تعد سوى محطة يجب دراستها ومعرفتها تأسيسا للدرس اللساني الجديد المتجه أصلا إلى الممارسة السيميائية في إنتاج الدوال ومدلولاتها على الرغم من تحولاتها الدلالية وانفتاحها، بل وفراغها الذي يعطيها افتراضات دلالية تتساوق مع أحوال الذات المنتجة لها، وبذلك يكون الموضوع قد جرى عليه ما جرى على دواليب المجتمع عموما وصار الإنتاج اللساني ركاما معرفيا لآفاق الدرس اللساني والسيميائي مستقبلا لتتأسس تقاليد علمية تنهل من التقاليد الاجتماعية قيمتها.

الهوامش:

1 - Paul Ricœur, de l'interprétation, essai sur Freud, édition du seuil, 1965, p 22-23.
وينظر أيضا في الموضوع: دانيال تشاندلر، أسس السيميائية، تر: طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص115 وما بعدها فيما عنون له بـــ: تسمية الأشياء. يتعين ذلك بوضوح عند حديث بول ريكور عن العمل في إدراك الرموز على اختلافها، مما يجعل العلامة دالا ومدلولا وشيئا يرتبط كل واحد منها بالأخر.

2 –Cours de linguistique générale, édition Talantikit, Bejaia, 2002, p101.

3 -Ibid., p103.

4 –Ibidem.

5 -Ibid., P104-405.

6 - Pierre Bourdieu, langage et pouvoir symbolique, Edition Fayard, 1991, P194.

7– ينظر: دانيال تشاندلر، أسس السيميائية، ص146.

8– ينظر السابق، ص145.

9– ينظر السابق، ص143–146.

10– ينظر السابق، ص254. والصيغ رمزية وأيقونية وتأشيرية. ينظر أسس السيميائية ص 84 و86 و89 على التوالي.

11– ينظر السابق، ص253.

12– ينظر السابق، ص255–256.

13– السابق، ص257–258.

14– ينظر: بيار غيرو، علم الإشارة، السيميولوجيا، تر: منذر عياشي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1988، ص83.

15– ينظر السابق، ص90.

16– ينظر السابق، ص84.

17– ينظر السابق، ص85.

18– ينظر السابق، ص87.

19– ينظر أسس السيميائية، ص81.

20– ينظر السابق، ص79.

21– ينظر بول ريكور، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى: تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان/الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003، ص29.

22– بيار غيرو، علم الإشارة، ص116.

23– ينظر: أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، تر: سعيد بنكراد، المركز الثقــافي العربـــي، بيروت، لبنان/الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000، ص46.

24 –Pierre Bourdieu, langage et pouvoir symbolique, p203.

25– Ibid. p293-294.

26 - Ibid., p67.

27 - Ibid., p70.

28 -Ibid., p89.

29 - Ibid., p161.

30 - Ibid., p201.

31– تيري إيجلتون، مقدمة في نظرية الأدب، : أحمد حسان، نوارة للترجمة والنشر، ط1، 1997، القاهرة، ص102.

32 - Paul Ricœur, la métaphore vive, éditions du Seuil, 1975, p163.

[33]– تيري إيجلتون، مقدمة في نظرية الأدب، ص 102.

[34]– السابق، ص100.

[35]– السابق ، ص102.

[36]– السابق ، ص100. ما بين [..] إضافة إلى كلام الباحث.

[37]– يوري لوتمان، سيمياء الكون، تر: عبد المجيد نوسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص133.

[38]– ينظر السابق، ص132.

[39] - Voir : Paul Ricœur, la métaphore vive, P148.

وفيها يؤكد أن تغيرات المعنى ..إبداع، أي ظواهر كلامية وأغلبها فردي فيه قصد.

[40] - Voir : J.M.Adam, Textes types et prototypes, recit, description, explication et dialogue, Nathan, Paris, 4e édition, 2001, p22.

[41]-Voir :J. Dubois , dictionnaire de linguistique, librairie Larousse, Imprimerie Berger-Levrault, Nancy, France, Edition 1982, p137-138. Et C. K. Orécchioni, l'énonciation, de la subjectivité dans le langage, Librairie Armond Colin, Paris, France, 1980, p30.

[42]– ينظر: رولان بارت، لذة النص، تر: منذر عياشي، منتدى مكتبة الاسكندرية، ط1، ص56. طريقة من طرق اللاشعور كونه بإيجاز الإيديولوجيا في جوهرها.

[43] - Voir : Paul Ricœur, la métaphore vive, p242. (Plaidoyer pour la ressemblance).

[44]– ينظر رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2010، ص59–64 مستندا في ذلك على أبحاث امبرتو إيكو في كتابيه السيميوطيقا وفلسفة اللغة (Sémiotique et philosophie du langage) وحدود التأويل (Les limites de l'interprétation.)

[45]– تيري إيجلتون، مقدمة في نظرية الأدب، ص101. وينظر أيضا في الموضوع:

Paul Ricœur, la métaphore vive, p279. (Plaidoyer contre la référence).

[46]– تيري إيجلتون، مقدمة في نظرية الأدب، ص113.

[47]– جوليا كريستيفا، علم النص، تر: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1997، ص21–22 وما بعدهما.

[48]– غريماس وفونتنيي، سيميائيات الأهواء، من حالات الأشياء إلى حالات النفس، تر: سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2010، ص68.

[49]– غريماس وفونتنيي، سيميائيات الأهواء، ص69.

[50]– السابق، ص71.

[51]– السابق، ص101.

[52]– السابق، ص72.

[53]– ينظر آن إينو (Anne Hénault) في كتابها تاريخ السيميائية، ترجمة رشيد بن مالك، منشورات مخبر الترجمة والمصطلح، جامعة الجزائر ودار الآفاق، 2004، ص71–72 في حديثها عن نظرية لويس هالمسلاف (Louis Hjelmslev) .

[54]– السابق، ص78.

[55]– السابق، ص82. فيما سمته جبر اللسان عند هالمسلاف الذي تعدى اللسانيات التقليدية وتجاوز حدود علم الدلالة الثابت.